

مجلة المنهل • المجلد: 06، العدد: 02 (2020م) • ص ص 75 – 98
ISSN : 2437 - 1068 • EISSN 8392 - 2710

المضامين التربوية للتصوف الإسلامي
ـ قراءة تحليلية في التعاريف الاصطلاحية للتصوف الإسلامي ـ

The Educational Contents of Islamic Sufism
- Analytical reading in the definitions of Islamic Sufism –

د. معمر قول *
معهد العلوم الإسلامية ـ جامعة الوادي/ الجزائر
Koulkoul6@gmail.com

تاريخ النشر:	تاريخ القبول:	تاريخ الاستلام:
2020/12/20	2020/11/27	2019/09/05



ملخص:

يُعتبر التصوف الإسلامي من العلوم الحادثة في الملّة، وقد عرف تطورا كبيرا متأثرا في ذلك كغيره من العلوم بالسياقات المختلفة، وهو علم موضوعه إصلاح النفوس وتزكيتها بحملها على مكارم الأخلاق والفضائل وتزكيتها من الآفات والرذائل ،لذا كان عِلما أصيلا تمتد جذوره إلى نور الوحي ومشكاة النبوة، إلا أن تأثره بالثقافات والأفكار الأجنبية واختلاط مباحثه بمباحث الفلسفة والآراء النظرية أسهم في رسم صورة نمطية سيئة عنه، مما يجعلنا مُطالبين بإعادة تقديمه وقراءته من خلال الوقوف على مصادره الأصلية وتحليل أقوال أساطينه –بمعزل عن القراءات الخارجية– وهي مُحاولة يُمكن أن تُسهم بشكل كبير في الكشف عن المضامين التربوية والأخلاقية التي تضمنها ،كما يُمكنها أن تُساهم في إعادة علم التصوف إلى مكانته الصحيحة المُنبثقة عن الوحي الشريف بتزكية النفوس ومداواتها تحقيقا لإنسان الخلافة والشهادة معا، وهذا ما تسعى إليه هذه الورقة، وذلك من خلال تحيين التعاريف الاصطلاحية واستلهام ما تضمنته من قيم يُمكنها أن تُساهم في البناء الأخلاقي للأمة الإسلامية.

الكلمات المفتاحية:
التصوف؛ التزكية؛ القيم؛ الأخلاق؛ التربية؛ مداواة النفوس؛ الأمراض والعلل.

Abstract :

Islamic mysticism is considered to be one of the sciences occurring in Al-Milal (religion). However, his influence with foreign cultures and ideas and the intermingling of his research with philosophy and theoretical views contributed to a bad stereotype about him, which makes us required to reintroduce it and read it by looking at its original sources and stronger analysis. It is an attempt that can contribute significantly to the disclosure of the educational and ethical implications contained in it, and can contribute to the restoration of the science of mysticism to its rightful position emanating from the revelation of the holy revelation of the souls and therapeutics to achieve the human caliphate and martyrdom together, and this is what this paper seeks, through Refreshing idiomatic definitions and inspiring their values that can contribute to the moral construction of the Islamic Ummah.

Keywords:
Sufism ; Testimonial ; Values ; Ethics ; Education ; Healing of souls ; Diseases and illnesses.

(*) المؤلف المراسل.







1. مقدمة:

تعتبر تزكية الإنسان من أهم المقاصد التربوية في الإسلام ،فالسعي لإصلاح الجزء متضمن للكلّ ومتعدّ إليه وقد عرفت الحضارة الإسلامية علما جعل هذا المقصد هدفه وغايته وموضوعه وهو علم التصوّف الإسلامي الذي ركزّ أساطينه وأربابه على مشروع التربية الرّوحية بطريق التحلية والتخلية ،التحلية بالفضائل والتخلية من الرذائل عن طريق مداواة النفوس وترويضها وإصلاح القلوب وتطهيرها ،وهي عملية يمكن من خلالها العودة بالإنسان إلى أصله وفطرته وتحقيق المصالحة والسلم مع ذاته ونفسه بحملها على مقتضى الآداب والفضائل والقيم والنأي بها عن الرذائل ،ويمكن أن نلمس هذه الأهداف والغايات في تلك الحدود والتعاريف التي وضعها علماء التصوّف لحدّه وبيان موضوعه ،رغم كثرتها التي عبّر عنها الشيخ زرّوق الفاسي البرنسي (899 هـ) في كتابه قواعد التّصوّف في القاعدة 02 قائلا: "وقد حُدّ التّصوّف ورسم وفسّر بوجوهٍ تبلغُ الألفين مرجعها كلّها لصدقِ التّوجّهِ إلى الله تعالى، وإنّما هي وجوه فيه والله أعلم ".

وتحديد العلاقة بين التربية الروحية والتصوّف يمكن أن يُستشفّ من خلال هذه التعاريف التي وضعها القوم وبيان مضامينها ودلالتها ،فحدّ الشيء وحقيقته منبئة بموضوعه الذي لأجله وُضع ،واستنطاق هذه التعاريف وتحليلها استماع رؤية موضوعية ومنهجية من شأنها أن تؤكد على الأبعاد التربوية والروحية للتصوف الإسلامي وتأكيد لأصالته واستمداده من الوحي الشريف ،ومرافعة عنه في الوقت نفسه ضدّ بعض الرؤى التي رسمت عنه صورة نمطية ارتبطت بالرسوم والأشكال والطقوس ،فلا سبيل لإبراز أصالته وسموّ أهدافه وغايته إلا من خلال الوقوف على أصل وضعه وحدّه ،وهو ما عبّر عنه الشيخ زروق الفاسي بقوله في القاعدة 05 من كتابه: "إسناد الشّيء لأصلِ والقيام فيه بدليلِه الخاصِّ به يدفعُ قول المنكِر بحقيقتِه [لأنَّ ظُهورَ الحقِّ في الحقيقةِ يمنعُ من معارضتِها] ".

وعلى ضوء هذا نطرح التساؤلات التالية ،ما مفهوم التصوف الإسلامي ؟ وما هي مضامينه الروحية والتربوية؟ وهل يُمكن أن تساهم هذه المضامين في إعادة تشكيل الصورة الصحيحة عن التصوف الإسلامي؟ وما مدى مساهمته في تحقيق السلم الداخلي والخارجي (فردا ومُجتمعا) .

خطّة العمل :

1. مقدمة
2. المطلب الأول: الإنسان وأبعاده المختلفة في التصور الإسلامي.
3. المطلب الثاني: أصالة التصوف الإسلامي ومنزلته في الإسلام

4. المطلب الثالث: مفهوم التصوف الإسلامي و مضامينه التربوية والروحية

5. المطلب الرابع: التصوّف الإسلامي من سلام الباطن إلى سلامة العوالم الخارجية – قراءة في الثمرات –

6. خاتمة: بأهم النتائج المتوصل إليها

2. المطلب الأول: الإنسان وأبعاده المختلفة في التصور الإسلامي.

بالوقوف على المنتج المعرفي الإنساني في مختلف الميادين المعرفية تتجلى مضامين خطاباته المختلفة ،إذ كان هذا المنتج إجابة عن تلك التساؤلات التي شغلت فكر الإنسان وحاول من خلالها إشباع حاجاته المختلفة الروحية والبيولوجية والنفسية والعقلية وحتى مدارك الخيال ، فنشأ على إثر هذه الرؤى علوم مختلفة كعلم النفس والتصوف والطب والفلسفة والفنّ والرسم والموسيقى ،وهذا التعدد والتنوع تأكيد على الجوانب المختلفة للإنسان ،وهو ما أشار إليه صاحب كتاب الإنسان ذلك المجهول حين اعتبر الإنسان كلا لا يتجزأ وفي غاية التعقيد مما يجعلنا عاجزين عن ايجاد طريقة لفهمه في مجموعه وأجزائه وعلاقاته مع العالم الخارجي ولتحليل أنفسنا لا بد من الاستعانة بعلوم مختلفة [1] .

تتجلى هذه الحقيقة الكيانية للإنسان في تلك الصورة التي رسمها القرآن الكريم عنه وحديثه المستفيض عن كل ما يتعلق به ،بل كان أحد المحاور الرئيسة في الخطاب القرآني ،ويمكن أن نلمس هذه الأبعاد المختلفة من خلال تلك الرحلة التي رسمها القرآن الكريم للإنسان وقصة خلقه وامتزاج الطين بالروح ،بل يؤسس القرآن الكريم لماهية الإنسان قبل وجوده من خلال آية الميثاق والعهد في قوله تعالى :﴿**وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ**﴾ **الأعراف / 172**، أما ثنائية الروح والجسد فأشارت إليها آيات كثيرة منها ﴿**وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ** ﴾ **الحجر /28-29**، وجاء في تفسيرها :" عدلت خلقته وهيأتها لنفخ الروح فيها، وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي حين جرى آثاره في تجاويف أعضائه فحيي، وأصل النفخ: إجراء الروح في تجويف جسد آخر. ولما كان الروح يتعلق أولاً بالبخار اللطيف المنبعث من القلب، وتفيض عليه القوة الحيوانية فيسري في تجاويف الشرايين إلى أعماق البدن، جعل تعلقه بالبدن نفخاً " [2].

على ضوء هذه الثنائية في خلق الإنسان تفرعت مختلف القوى الأخرى فمنها ما لاحق بعالمه الترابي الأرضي الطيني وهي حاجاته البيولوجية ووظائفه الفيزيولوجية، وهي استعدادات تؤهله للاتصال بعالمه الخارجي الحسّي عن طريق حواسّه ،ومنها ما يلحق عالمه الروحاني النوراني وهي تلك اللطيفة القلبية

المودعة في القالب الجسماني والتي عبّر عنها النبي بالمضغة في قوله « أَلاَ وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً: إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، أَلاَ وَهِيَ القَلْبُ» [3]، والنّفس الإنسانية مجموع هاته القوى ، وجنودها فِي حراب وقتال وشجار فَتَارَة تنْزع إِلَى جَانب الْعُقُول فتتلقى المعقولات وَتثبت على الطَّاعَات وَتارَة تستولي عَلَيْهَا القوى فتهبط إِلَى حضيض منَازِل الْبَهَائِم فَهَذِهِ نفس لوامة وَهَذِه النَّفس هِيَ حَالَة أَكثر الْخلق وتارة ترتفع إِلَى أفق الْمَلَائِكَة فتتحلّى بالعلوم والفضائل فتغدو ملكا جسمانيا وَمن اتضع حَتَّى صَار فِي حضيض الْبَهَائِم لم تكن مشاركته للإنسان إِلَّا بالصورة التخطيطية [4]،وعلى هذا الأساس فالرغبات والحاجات تختلف باختلاف قوة حضور هذه القوى ،لذا يرسم لنا أبو حامد الغزالي صورة لهذا النزاع الداخلي في كتابه معارج القدس فيرى أن الإنسان من حيث غذاؤه وتناسله فنبات، ومن حيث إحساسه وحركته فحيوان، ومن حيث صورته وقامته فصورة منقوشة على حائط. وإنما خاصته التي بها تميّز فعقله، المدرك لحقائق الأشياء. فمن استعمل قواه بغرض العلم والعمل، فقد تشبه بالملائكة، ومن صرف همته إلى طلب اللذات والشهوات فقد نزل إلى أفق البهائم [5].

ونجد هذه الصورة نفسها في تراث مولانا جلال الدين الرومي إذ يرى أن الدنيا نصيب الجزء الحيواني لآدم ،فالجسد غذاؤه الشهوات والآمال أما الجوهر فغذاؤه العلم والحكمة ورؤية الحقّ ، فحيوانيته تفرّ من الحقّ ، أما إنسانيته فتفرّ من الدنيا ، لذا يعتبر الرومي أن اشتغال الإنسان بالصور والماديات يجعل منه طفلا غير بالغ حتى ولو كان شيخا ذا مئة سنة ، وعليه أن يُدرك بأنه يحمل بداخله جوهرا ويُمثل لذلك بالغزال والمسك ، فالسعيد من وصل إلى المسك وغدا مسكا[6].

وموضوع الإنسان عند الشيخ الاكبر ابن عربي شغل حيّزا كبيرا من فكره وتراثه ،فيرسم لنا برؤيته العرفانية العميقة صورة سامية للإنسان ، ففي كتابه إنشاء الدوائر يقول عن هذه المكانة :" ...فإذا نفخ في الإنسان روح القدس التحق بالوجود المطلق التحاقا معنويا مقدسا وهو حظه من الالوهية [7] فلهذا تقرر عندنا أن الإنسان نسختان نسخة ظاهرة ونسخة باطنة فالنسخة الظاهرة مضاهية للعالم بأسره فيما قدّرنا من الاقسام والنسخة الباطنة مضاهية للحضرة الالهية ،فالإنسان هو الكل على الاطلاق والحقيقة ،إذ هو القابل لجميع الموجودات..." [8]

ومما يمكن أن نستدل به أيضا على عوالم الإنسان المختلفة حديث القرآن الكريم عن النفس وأمراضها وعللها وحاجاتها ،مع الدعوة إلى تزكيتها وتطهيرها ، قال تعالى: **﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ الشمس/09-10** ، وجاء في تفسيرها :" ... فاز بكل مطلوب، ونجا مِن كل مكروه مَن طَهَّرَها وأصلحها وجعلها زكيةً بالإيمان والطاعة، **{وَقَدْ خَابَ مَن دسَّاها}** ؛ أغواها، قال عكرمة: " أفلحت نفس زكّاها اللهُ، وخابت نفس أغواها الله " ويجوز أن تكون التّدسية والتطهير فعل العبد، والتّدسية الدّس

والإخفاء، أي: خسر مَن نقصها وأخفاها بالفجور..." [9].وحديثه عن أمراض القلوب من كبر وحسد ،لذا كان الاشتغال بإصلاحها وتطهيرها انتصار للمطالب الروحية العالية وتحقيق لغاية العبودية والاستخلاف واستحقاق للتكريم الإلهي وتجسيد لإنسانية الإنسان والعودة به إلى أصل الفطرة التي خلقه الله عليها ،وهذه خاصية ينفرد بها الإنسان عن غيره من الموجودات :" ...إن النفس الإنسانية تمتاز عن سائر النفوس والموجودات الأخرى بتلك القوى المدهشة العجيبة...ومن خصائص هذه القوة العاقلة ،أنها القوة التي يتجلى فيها نور معرفة الله تعالى ويُشرق منها ضوء كبريائه ،فتهيء صاحبها بذلك لممارسة العبودية لخالقها العظيم جلّ جلاله ،فيصبح الإنسان نتيجة لذلك أول مظهر لألوهية الله عز وجل ،وإذا كان الأمر كذلك، فإن من لوازمه الواضحة أن تكون النفس الإنسانية أشرف النفوس الموجودة في العالم ..." [10] .

إن صورة الإنسان وفق التصور الإسلامي صورة معتدلة تجنح عن كل تفريط أو إفراط أو غلو ،ورؤية تجمع له بين مطالبه الجسدية البيولوجية وعالمه المادي، وفي الوقت نفسه تدعوه لأن يكون وفق المطلب الإلهي بالتحقق بالكمالات والفضائل تحقيقا للسعادة في الدارين **﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ﴾ القصص/77** ، فالرّوح هي الجوهر الإنساني وهي كالمرآة عاكسة لكل الكمالات ،وفي هذا يقول الشيخ الرئيس :"ترتسم فيها المعقولات من الفيض الإلهي كما ترتسم الأشباح في المرايا الصقيلة إذا لم يفسد صقالها بطبع ولم تُعرض بجهة صقالها عن الجانب الأعلى مشتغلة بما تحتها من الشهوة والغضب والحسّ والتخيّل ،فإذا أعرضت عن هذه وتوجّت تلقاء عالم الأمر لحظت الملكوت الأعلى واتصلت باللذة العليا ..." [11].

3. المطلب الثاني: أصالة التصوف الإسلامي ومنزلته في الإسلام.

3،1. أصالته :

يُعتبر التصوف الإسلامي من علومِ الدّين، التي جعلت التزكية هدفا والنّفس موضوعا والطّريقة وسيلة وهو ما بيّنهُ أعلام التّصوّف، فقال الإمام الطوسي في اللّمعِ في جوابِه عن سؤالٍ وُجّه إليه مفادُه بيانَ حقيقةِ علمِ التّصوّفِ ومذهبِ الصّوفيّة، وبيّن أنّ العلومَ المتداولةَ بين العلماء لا تخرج عن ثلاثٍ: آياتٍ من كتابِ الله عزّ وجل، أو خبرٍ عن رسولِ الله ﷺ، أو حكمةٍ مُستنبطةٍ ظهرتْ على قلبِ وليٍّ من أولياءِ الله[12].

وهو ما ذكرهُ ابن خلدون في سياق حديثه عن العلومِ المختلفةِ التي نشأتْ في الحضارةِ الإسلاميّة، وعدَّ التّصوّفَ منها فقال: "هذا العلمُ من علومِ الشّريعةِ الحادثةِ في الملّة ..."[13].

لذا انفرد التّصوّف بخصوصيّةِ اصطلاحاتِه ، وخصوصيّةِ التّجربةِ الصّوفيّةِ من جهةٍ أخرى القائمة على الذّوقِ والمكابدة، فلا يُمكن إدراكَ حقيقةِ التّجربةِ الصّوفيّةِ إلّا بتجربةٍ مماثلةٍ جوّانيّة، وهو ما صعّبَ البحثَ في التّجربةِ الصّوفيّة، وهو ما صرّحَ به الغزالي في كتابِه المُنْقِذُ من الضّلال، فبَعْدَ قراءتِه ما ألّفهُ أساطينُ التّصوّفِ الإسلامي توصّلَ إلى نتيجةٍ مفادُها أنّهُ لا يمكنُ إدراكهُ – التّصوّف – إلّا بالتّعلّمِ والذّوْقِ والحالِ، فأدركَ بعد تجربةٍ أنّهم أرباب أحوالٍ لا أرباب أقوال، وعَلِمَ أنّ أخلاقَهم أزكى الأخلاقِ وسيرتَهم أحسنَ السّير، وقد سار الغزالي في طريقِهم وأخذَ نفسَه بالرّياضةِ والمجاهدةِ مُدّةً طويلةً حتّى انكشفتْ له[14] في خلواتِه أمورٌ لا يمكنُ حصرها، وانتهى به هذا إلى اليقين، وأدركَ أنّ المعرفةَ الحق هي ما كان عن طريقِ الكشف، ويعلّقُ الغزالي على طريقةِ القومِ بقوله: "... إنّ جميعَ حركاتهم وسكناتهم في ظاهرِهم وباطنِهم مقتبسةٌ من نورِ مشكاةِ النُّبوّةِ وليس وراء نورِ النُّبوّةِ على وجه الأرض نورٌ يُستضاءُ به"[15].

إنّ الحديثُ عن التّصوّفِ تفعيلٌ لما جاء به القرآنُ الكريمُ والسُّنّة النّبويّة، ونقصدُ بذلك الأحكام التي تضمّنها الإسلامُ جملة، وهي تندرجُ تحت ثلاثةِ أقسامٍ رئيسيّة، وهي العقائدُ والفروعُ من عباداتٍ ومعاملاتٍ وأخلاق [16].

وهذه الثلاثية هي المُعبّر عنها بالإسلامِ والإيمانِ والإحسان [17]، وعلى ضوءِ هذه الأقسامِ نشأتْ علومٌ حاولَ أصحابُها تقعيد قواعدِها وبيان أصولِها وفروعِها استنباطًا من الوحي الشّريف، فأسس علم العقائدِ المتعلّق بالأصولِ ببيانِ أصولِ الاعتقاد، وهو المعبّر عنه بأركانِ الإيمانِ السّت، وأسس علم الفقه المتضمِّن لأبوابِ العباداتِ من صلاةٍ وزكاةٍ وغيرها، ومعاملاتٍ كبيعٍ وزواجٍ وميراث، وأسس علم ثالث اهتمَّ أساطينُه بمبحثِ الأخلاقِ عن طريقِ مداواةِ النُّفوسِ بتحليتِها بالفضائلِ وتخليتِها من الرّذائلِ، وهو علمُ التّصوّفِ الذي كان موضوعُه الرّئيس إصلاح النّفسِ الإنسانيّة، وهو المعبّر عنه بالإحسانِ في حديثِ النّبي ﷺ، لذا دفع الشّيخُ زرّوق الفاسي في قواعدِه اعتراض منْ يرى أنَّ التّصوّفَ دخيلٌ لا أصلَ لهُ من كتابٍ وسنّةٍ في القاعدة 05 من كتابه: "إسنادُ الشّيء لأصلِه والقيامُ فيه بدليلِه الخاصِّ به يدفعُ قول المنكِر بحقيقتِه [لأنَّ ظُهورَ الحقِّ في الحقيقةِ يمنعُ من معارضتِها]، فأصلُ التّصوّفِ مقامُ الإحسانِ الذي فسّرهُ رسولُ الله ﷺ بأنْ تعبدَ الله كأنّك تراه ... كما دار الفقهُ على مقامِ الإسلام، والأصولُ على مقامِ الإيمان، فالتّصوّفُ أحدُ أجزاءِ الدّين"18.

لذا دعا علماءُ الأمّةِ من الفقهاءِ وأساطينِ التّصوّفِ الإسلامي إلى مراعاةِ أحكامِ الشّريعةِ الإسلاميّةِ في الجملةِ سواء ما تعلّق منها بالأوامرِ من أقوالٍ وأفعالٍ ظاهرةٍ كالصّومِ والصّلاةِ والأمرِ بالمعروفِ والنّهيِ عن المنكرِ أو ما تعلّق بالنّفسِ والقلبِ كالإخلاصِ والتّواضعِ والحبِّ في الله والبغضِ فيه، وكذا

النّواهي المتعلّقة بظاهرِ الأقوالِ والأفعال، كالنّهي عن القتلِ بغيرِ حقٍّ والسّرقةِ والزّنى والغيبة والنّميمة، وإلى ما يتعلّق بأعماقِ النّفسِ أو القلبِ كالنّهي عن الكِبْرِ والعُجبِ والرّياءِ والحقدِ والضّغائنِ والتّعلّقِ بزخارفِ الدُّنيا وأهواءِ النّفوس[19].

3،2. أهميته:

يكتسي التصوّف أهميّته بالنظر إلى موضوعه الذي من أجله وضع له ،وهو مداواة النفوس بتحليتها بالفضائل وتخليتها من الرذائل ،وحملها على مكارم الأخلاق وأمهات الفضائل ،وقد بينا في مفهوم التصوّف انصرافه إلى الأخلاق ،وهي رسالة الإسلام ونبي الإسلام ﷺ ،فقد بيّن الله أن المقصد من نبوته ورسالته هو البعد الأخلاقي والقيمي ،قال تعالى: **﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ الجمعة /02**. وجاء في تفسيرها :" وَابْتُدِئَ بِالتِّلَاوَةِ لِأَنَّ أَوَّلَ تَبْلِيغِ الدَّعْوَةِ بِإِبْلَاغِ الْوَحْيِ، وَثُنِّيَ بِالتَّزْكِيَةِ لِأَنَّ ابْتِدَاءَ الدَّعْوَةِ بِالتَّطْهِيرِ مِنَ الرِّجْسِ الْمَعْنَوِيِّ وَهُوَ الشِّرْكُ، وَمَا يَعْلَقُ بِهِ من مساوئ الْأَعْمَالِ وَالطِّبَاع " [20]، ولا شكّ أن التّطهير من مساوىء الأعمال والطّباع تغيير للأخلاق الذميمة إلى أخلاق حسنة ،وفي الحديث الشريف ما يؤكد على هذا المعنى في قوله ﷺ " إِنَّمَا بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلاقِ " [21] .

لذا كانت الأخلاق قسما هاما من أقسام الرسالة التي تضمنت التوحيد والأصول (العقائد) والعبادات والمعاملات ، والأخلاق داخلة في هذه الأقسام الثلاث ، وهو ما يؤكده حديث جبريل المشهور عن الإيمان والإسلام والإحسان ، وينقل الإمام النووي في شرحه لهذا الحديث قولا للقاضي عياض قَالَ الْقَاضِي عِيَاضٌ في شرح عبارة « أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ »:

"وَهَذَا الْحَدِيثُ قَدِ اشْتَمَلَ عَلَى شَرْحِ جَمِيعِ وَظَائِفِ الْعِبَادَاتِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ مِنْ عُقُودِ الْإِيمَانِ وَأَعْمَالِ الْجَوَارِحِ وَإِخْلَاصِ السَّرَائِرِ وَالتَّحَفُّظِ مِنْ آفَاتِ الْأَعْمَالِ حَتَّى إِنَّ عُلُومَ الشَّرِيعَةِ كُلَّهَا راجعة إليه ومتشعبة مِنْهُ" [22].

والقرآن الكريم متضمن للدعوة إلى مكارم الأخلاق والفضائل ،بل من مقاصده تطهير الإنسان وتزكيته ،لذا امتدح الله من يشتغل بإصلاح عيوب نفسه وتطهيرها ،قال تعالى : **﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ الشمس/09-10**، وجاء في تفسيرها : أي: فاز بكل مطلوب، ونجا مِن كل مكروه مَن طَهَّرَها وأصلحها وجعلها زكيةً بالإيمان والطاعة، **﴿وَقَدْ خَابَ مَن دسَّاها﴾** ؛ أغواها، قال عكرمة: " أفلحت نفس زكّاها الله، وخابت نفس أغواها الله " ويجوز أن تكون التدسية والتطهير فعل العبد. والتدسية: النفس والإخفاء، أي: خسر مَن نقصها وأخفاها بالفجور" [23].

ولأهمية مقام الإحسان والتزكية في الإسلام جعله الله أحد المحاور التي يدور عليها موضوع القرآن الكريم ،وهو شامل لكلّ المستويات فردا وأمة وجماعة ودولة ،وفي هذا يقول محمد الغزالي :"وهكذا نرى الإحسان يشمل الفرد والمجتمع والدولة، ولن تقوم تربية راشدة إلا إذا غرسنا معنى الإحسان في النفوس على أنّه من محابّ الله تبارك وتعالى " [24].

والجانب العبادي في الإسلامي من صلاة وزكاة وصوم وحج إنما المقصد من تشريعها كونها مدارج للكمال المنشود وروافد للتطهر [25]،ويعلّق الشيخ محمد الغزالي على حديث جبريل ويُبرز جامعيته وشموليته التي تضمنت الأسس العظيمة التي تحقق السعادة للإنسان باعتباره مستخلفا ومكلفا فيقول:" والحديث الذي بين أيدينا يشرح الحقيقة الصحيحة للدين ،والإيمان إذا صحّ لا بد أن ينتج العمل ،والعمل إذا صحّ لا بد أن يرتكز على الإيمان ،والإحسان إذا صح لا ينشأ إلا من إيمان راسخ وعمل كامل ...والإسلام لا يصح إلا بالروح الكامنة فيه ،والوقود المحرّك له أي الإيمان الحقّ، فإذا استبطن هذا اليقين الدافع فأمامه مثله الأعلى في إحكام الصلة بالله، والشعور برقابته الدائمة ،وشهوده الجليل وهو مقام الإحسان."[26]

إن إحياء النفوس البشرية وتطهيرها وهداية الحيارى من الناس في واقعنا اليوم مع تحديات العولمة وما صاحبها من خواء روحي وقيمي وأخلاقي وتصارع على الشهوات والماديات لا يمكن أن يقوم بهذا كله إلا الروحانية المنبثقة من جوهر التصوف الإسلامي ،لذا يرى الشيخ محمد الغزالي أن التصوف باعتباره جانب من جوانب الثقافة الإسلامية الرحبة لم يلق العناية المستحقة من جمهرة المتكلمين والفقهاء ، والمتصوفة – رغم بعض شطحاتهم هم من أثاروا هذا المبحث الجوّاني ،فالفقهاء كتبوا المجلدات في غسل الأطراف ،والمتكلمون عقدوا الفصول في الشؤون الإلهية ،وعجزوا أن يرفعوا الناس إلى حضرة الله بأسلوب علمي محكم [27]

وما ذكره الشيخ محمد الغزالي صحيح ،إلا أن ما تجدر الإشارة إليه أن الفصل عند سلفنا بين ما هو كلامي وفقهي وما هو روحي أخلاقي كان لظروف العصر والسياق الثقافي والتاريخي الذي ألجأ سلف الأمة إلى تلك المباحث ،لكن هذا لا يرفع المساءلة ولا النقد من باب جلد الذات .

يكتسي التصوف الإسلامي أهميته من حيث كونه موجّه لإصلاح الباطن كما جُعلت الشريعة من حيث العبادات لإصلاح الظاهر عن طريق الأحكام الشرعية من مأمورات ومنهيات ،وعبادة الظاهر شريعة وعبادة الباطن شرع أيضا ولا فصل بينهما ،بل من الخطورة الاعتقاد بهذا الفصل ، يقول الشيخ محمد الغزالي في هذا المعنى :" إن الله شرع الدّين موضوعا وشكلا، معنى ولفظا ،يقظة نفسية ،وحركة بدنية ،فمن أخذ الظاهر من هذا كله وترك الباطن ،فهو يعبث بالدين ويتخذه ولعبا ولهوا " [28].

وهذا الأمر هو ما يُطلق عليه بثنائية الشريعة والحقيقة ،لذا نجد سلطان العلماء العزّ بن عبد السلام يؤكّد على هذه الثنائية ،مبيّنا دور التصوف في إصلاح القلوب والبواطن وتزيينها بما يقربها من الكمال فيقول:" ومعرفة ذلك هي الملقّبة بعلم الحقيقة، وليست الحقيقة خارجة عن الشّريعة، بل الشريعة طافحة بإصلاح القلوب بالمعارف والأحوال والعزوم والنيات، وغير ذلك مما ذكرناه من أعمال القلوب، فمعرفة أحكام الظواهر معرفة لجلّ الشرع، ومعرفة أحكام البواطن معرفة لدقّ الشريعة ..." [29].

ولعلّ ما غيّب صورة التصوف الحقّة ورسم عنه صورة سيئة كون أغلب الناس جعلوه رسوما وأشكالا وخِرقة ،وهو في حقيقة أمره حُرقة وألم دائم ويقظة روحية لمن أنصف ،ومما استوقفني في هذا المقام تعليق الأستاذ زكي مبارك على الفهم الخاطئ للتصوف الإسلامي ، فقال :

" وكيف يقصر التصوف على أصحاب الرسوم والأشكال وهو من رسوم القلوب وأشكال الأرواح ،إن التصوف خليق بأن يصحب كل نزعة شريفة من النزعات الوجدانية ، والأساس أن يكمل الصدق ويسود الإخلاص...فيكون في الحب ويكون في الولاء ويكون في السياسة ..." [30] .

ويذكر الإمام أبو الحسن الندوي في كتابه " ربانية لا رهبانية" دور التصوف الإسلامي في التزكية وإصلاح القلوب ويرى أن استبعاد التصوف كمشروع أخلاقي كان بسبب التسمية " تصوف"، لذا صاغ إشكالية مفادها جناية المصطلحات على الحقائق والغايات ، لذا يرى أن الأجدر أن يُسمّى التزكية أو الإحسان أو فقه الباطن [31]،وهو رأي يحسم الخلاف بين أهله ،لكنه ظلم معرفي لأهله من أصحاب التصوف ، إذ لا مُشاحة في الاصطلاح ،فالتصوف علم من العلوم التي نشأت في الحضارة الإسلامية ،له أصوله وقواعده ومصطلحاته عند أهله ،ولا يُمكننا أن نغيّر تسمية علم من العلوم بدعوى أنه لم يُرض طائفة معيّنة ،بل إنّي أرى أن واجب تجديد التصوف الإسلامي واستحضاره للساحة المعرفية والتربوية يكون بالدفاع عن اسمه وشرح قواعده وأصوله .

ونذكر في ختام هذه الجزئية شهادة لأحد كبار الباحثين من المستشرقين في مكانة التصوف الإسلامي وهو هنري كوربان فيرى أن التصوف الإسلامي ظاهرة روحية لا تقدّر واستثمار لروحانية النبي ﷺ وجهد لعيش أنماط الوحي القرآني عيشا شخصيا عن طريق الاستبطان ،فالمعراج النبوي هو النموذج الذي حاول المتصوفة بلوغه والتصوف اعتراض على كل نزعة حاولت حصر الإسلام في ظاهر النصّ [32] ،ولا ننسى أن نذكر أيضا انجذاب كبار المستشرقين إلى التصوف الإسلامي وإنصافهم للإسلام ودفاعهم عنه انطلاقا من نافذة التصوف الإسلامي، ومن هؤلاء نذكر الفرنسية التي أسلمت إيفا ديفيتراي ميروفيتش التي وهبت نفسها لقراءة مولانا جلال الدين الرومي ،وكذا المستشرقة الألمانية أنيماري شيمل وأعمالها عن الرومي أيضا ، ومن أبرزهم أيضا الشيخ عبد الواحد يحي ولعلّ الله يكتب لنا عودة إلى هؤلاء الأعلام وإبراز

جهودهم والتعريف بهم في عمل أكاديمي خدمة للتصوف الإسلامي وبيانا لأنوار الإسلام وفضل سيدنا محمد ﷺ على الأمة ماضيا وحاضرا ومستقبلا .

4. المطلب الثالث: مفهوم التصوف الإسلامي ومضامينه التربوية والروحيّة

4،1. توطئة:

يشير الشيخ زروق الفاسي في قواعده إلى إشكال منهجي يكشف عن سرّ تعدد التعاريف الاصطلاحية للتصوف الإسلامي بقوله: "وقد حُدّ التّصوّف ورسم وفسّر بوجوه تبلغُ الألفين مرجعها كلّها لصدق التّوجّه إلى الله تعالى، وإنّما هي وجوه فيه والله أعلم "[33].

ويُحيلنا الإمام القشيري في كتابه الذي يُعتبر دستور التصوف (الرسالة) إلى الثراء الدلالي والمُعجمي لمعنى التصوف بقوله: "وتكلّم النّاس في التّصوّف ما معناه ؟ وفي الصّوفي من هو ؟ فكلٌّ عبّر بما وقع له ..."34

وفي قوله:[فكلٌّ عبّر بما وقع له] إشارة إلى التجربة الذاتية المبنية على المُكابدة والمجاهدة وعبارة (فكلٌّ عبّر) إحالة على المواجيد والأذواق التي يُترجمها صاحبها إلى عبارات يفيض بها الوجد، وقوله (بما وقع له) استبطان للذات والنفس وما يطرأ عليها من أحوال وتقلبات.

فما هي أبرز التعاريف التي تضمنت دلالة تربوية وأخلاقية يُمكن استثمارها والتحقق بها في سبيل بناء قيمي وأخلاقي يمكنه أن يُسهم في بناء الفرد المكلّف المُستخلف تحقيقا للوظيفة الوجودية (العبودية)؟.

4،2. تعاريف التصوف:

وردت تعاريف عدّة حُدّ بها التصوف الإسلامي قاربت الألفي قول كما بينا سابقا في قول زروق الفاسي، لذا سنختار منها ما يُقارب إشكالية بحثنا (البُعد القيمي والتربوي) ويقارب من فهوم المخاطبين باعتبارهم مُكلفين ،فالأخلاق التزام بالأمر واجتناب للنهي باطنا وظاهرا ،بغض النظر عن قائليها ،فالمقصد استلهام ما يستنهض همّة ويُزكي نفسا ويُصلح معوجا ويُنير قلبا ،ومن جملة هذه التعريفات نذكر:

4،2. 1. أبو محمّد الجريري[35]:

عرّف الجريري التصوّف بقوله :" التصوّف الدخول في كل خلق سني والخروج من كل خلق دني " [36]

وعرّفه أيضا بقوله:" التصوف مراقبة الأحوال ولزوم الأدب " [37].

تضمن التعريفان السابقان الدعوة إلى مكارم الأخلاق ،فالخُلق السني ،والسني المضيء ومنه قوله تعالى : ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ﴾ **النور /43.**

وجاء في لسان العرب :"وسَنَا البرقِ ضوْءه، يُكْتَبُ بالألف وَيُثَنَّى سَنَوَان وَلَمْ يَعرفِ الأَصمعي لَهُ فِعْلًا. والسَّنَا، بِالْقَصْرِ: الضَّوْءُ " [38]. ومنه فالخلق الحسن كالنور لصاحبه يضيء حياته وطريقه .

وأما قول الجريري مراقبة الأحوال فدعوة إلى مراقبة الأفعال والحركات والخواطر بالرجوع إلى مقتضى الشرع والالتزام به ،دون التعويل على ما ينقدح في نفس السالك، وقوله لزوم الأدب دعوة إلى عدم الخروج على حدود الشريعة ،فالسالك يبدأ بالأدب وينتهي طريقه بلزوم الأدب أيضا .

4،2 .2 المرتعش[39]:

قال عن التصوف:" أنه حُسن الخُلق ." [40]

وقد شرح الإمام الطوسي هذا القول وبيّن درجاته وأقسامه ،وأعلاها مع الحقّ بأداء أوامره بلا رياء ،وثانيها مع الخَلق بحفظ حرمة الكبار ،والشفقة على الصغار ،وانصاف الأقران، والإعراض عن الكلّ ،والثالث مع النفس بعدم متابعة الهوى والشيطان [41]،وقد جاء في الوحي ما يؤيد هذا المعنى في أكثر من موضع ،منها مدح الله لنبيه ﷺبقوله ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ القلم /04 ،ومن السنة قوله ﷺ «بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ محاسن الأخلاق» 42،وفيه أيضا عن مسروق «لَمْ يَكُنْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَاحِشًا وَلاَ مُتَفَحِّشًا، وَإِنَّهُ كَانَ يَقُولُ: «إِنَّ خِيَارَكُمْ أَحَاسِنُكُمْ أَخْلاَقًا» [43].

وعليه كانت الأخلاق هي محور التصوف الإسلامي ،وما الرسوم والأشكال إلا مظاهر وقشور، فجوهر الطريق الصوفي هو التحلية بمكارم الأخلاق والتخلية من الرذائل والآفات ، ومداواة النفوس بإصلاح ما كمن فيها من أمراض وعلل وحملها على مقتضى الأمر والنهي ، وهذا ما شرحه حديث جبريل السابق في بيان دوائر ومجالات الإسلام الثلاث (عقائد–شرائع– أخلاق)، لذا وقع الكثير في الوهم والخطأ حين اعتبروا التصوف أمرا زائدا يُمكن الاستغناء عنه ، ولم يفرقوا بين الانتماء للطريقة ، والالتزام بالآداب والأخلاق وظنوا التصوف شيئا يمكن الاستغناء عنه .

4،2 .3 عبد القادر الجيلاني[44]:

يُعتبر الشيخ عبد القادر الجيلاني من أقطاب التصوف في القرن السادس الهجري ،جعل حياته وقفا لهداية الخلق إلى طريق الحقّ بمنهج التربية والتزكية ،والقارئ لسيرة الرجل ومبادئ الطريقة القادرية يلمس الدرس الأخلاقي في خطاب الشيخ الجيلاني من خلال مؤلفاته ،وقد كان التصوف في رؤيته مبنيا على الصدق والصفاء والزهد وترك الشهوات ،لذا يتوجّه بنقد لاذع لمتصوفة عصره الذين جعلوا التصوف خِرقا

ورسوما ،ففي كتابه الفتح الرباني في المجلس الخامس والعشرين (25) يقول :" التصوف مشتق من الصفاء ،يا من لبس الصوف الصوفي الصادق في تصوفه يصفو قلبه عما سوى مولاه وهذا شيء لا يجيء بتغيير الخِرق وتصفير الوجوه وجمع الأكتاف ولقلقة اللسان بحكايات الصالحين وتحريك الاصابع بالتسبيح والتهليل ،إنما يجيء بالصدق في طلب الحق عز وجل والزهد في الدنيا وإخراج الخَلق من القلب وتجرّده عما سوى مولاه عز وجل " [45].

يتجلّى المضمون القيمي والأخلاقي في هذا التعريف بالإشارة إلى الصدق والتأكيد على أهميته في الطريق والعبادة فهو رأسها وأساسها والزهد في الدنيا والتجرّد لله عز وجل بطلب وجهه ومرضاته ،لذا نجد العلامة النورسي في خطبته الشامية يجعل فقد الصدق أحد أهم الأمراض الستّ التي أصابت الأمة الإسلامية :" موت الصدق في حياتنا الاجتماعية والسياسية [46].

وفي القرآن الكريم تأكيد على هذه القيمة الأخلاقية ،وقد ورد الصدق في القرآن بمرادفاته أكثر من 100 مرّة ، وأكثر الألفاظ ورودا ما جاء على صيغة اسم الفاعل (صادق) [47]، لذا يأمرنا الله بالتخلّق بهذه القيمة في أكثر من آية ،منها قوله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ التوبة /119**. وجاء في تفسيرها:"... الصدق سيف حازم، ما وضع على شيء إلا قطعه. ويكون في الأقوال، وهو صيانتها من الكذب، ولو أدى إلى التلف. وفي الأفعال، وهو صيانتها من الرياء وطلب العوض. وفي الأحوال، وهو تصفيتها من قصد فاسد، كطلب الشهرة، أو إدراك مقام من المقامات، أو ظهور كرامات، أو غير ذلك من المقاصد الدنية" [48]، وهذا المعنى اللطيف الذي ذكره ابن عجيبة هو ما أكدّ عليه الشيخ عبد القادر الجيلاني من قبل ،بل من المُلفت للانتباه في هذا السياق أن الصدق كان أحد الأسباب المهمة في سلوك عبد القادر الجيلاني للطريق الصوفي .

وفي السنة تأكيد أيضا على اعتبار هذه القيمة الخُلقية طريق لكل خير عَنْ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى البِرِّ، وَإِنَّ البِرَّ يَهْدِي إِلَى الجَنَّةِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ حَتَّى يَكُونَ صِدِّيقًا. وَإِنَّ الكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الفُجُورِ، وَإِنَّ الفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَّابًا» [49]

4،2. 4. أبو حمزة البغدادي:[50]

أشار أبو حمزة إلى معنى التصوف بوصف المتحقّق به فرأى أن علامة الصوفي الصادق أن يفتقر بَعْد الغنى ويذل بَعْد العز ويخفى بَعْد الشهرة، وعلامة الصوفي الكاذب أن يستغنى بَعْد الفقر ويعز بَعْد الذل ويشتهر بَعْد الخفاء.

أشار أبو حمزة البغدادي إلى سمات وصفات المتحقق بالتصوف المتخلّق بآداب أهله ،فأشار إلى أول علامة وسمة وهي الافتقار بعد الغنى ،وفيه إشارة إلى ترقّي السالك برؤية أثر نعمة الله عليه فيرى المُنعم ولا تحبسه النعم أو تأسره ،فلا يضره إن تصدّق بها لأنه يعلم أن قول الحق ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ سبأ/39.

وقال ابن عجيبة مُبيّنا الإشارة التي تضمنتها الآية :

" في الآية إشارة إلى منقبة السخاء، وإطلاق اليد بالعطاء، وهو من علامة اليقين، وخروج الدنيا من القلب " [51]، وهذا الخُلق الرفيع كان تاجا لسيدنا محمد ﷺ، وفي الصحيح « مَا سُئِلَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى الْإِسْلَامِ شَيْئًا إِلَّا أَعْطَاهُ، قَالَ: فَجَاءَهُ رَجُلٌ فَأَعْطَاهُ غَنَمًا بَيْنَ جَبَلَيْنِ، فَرَجَعَ إِلَى قَوْمِهِ، فَقَالَ: يَا قَوْمِ أَسْلِمُوا، فَإِنَّ مُحَمَّدًا يُعْطِي عَطَاءً لَا يَخْشَى الْفَاقَةَ » [52]

إن الافتقار بعد الغنى الذي أشار إليه أبو حمزة البغدادي أمارة الصادقين والموقنين في فضل الله ورزقه ،وفي الرسالة القشيرية حكاية عن شقيق البلخي وسؤاله جعفر بن محمد عن الفتوة: ما تقول أَنْت؟ فَقَالَ شقيق: إن أعطينا شكرنا وإن منعنا صبرنا قَالَ جَعْفَر الكلاب عندنا بالمدينة كَذَلِكَ نفعل فَقَالَ شقيق: يا ابْن بنت رَسُول اللَّهِ مَا الفتوة عندكم؟ فَقَالَ: إن أعطينا آثرنا وإن منعنا شكرنا [53].

ولمّا كان العطاء إلحاق الإحسان بالغير كان دليلا على تفقد أحوالهم والسؤال عنهم وقضاء حاجتهم ،لذا جعل القشيري هذا السعي أصلا للفتوّة :" أصل الفتوة أن يكون العبد ساعيا أبدا في أمر غيره " [54].

أما قول أبي حمزة البغدادي في الأمارة الثانية للصوفي الصادق (ويذلّ بَعْد العز)،فليس الذلّ هنا مذلة وهوان بل هو استحضار نعم الله وفضله بالخضوع والتواضع وخفض الجناح لعباده المؤمنين ،فلما كان العزّ نعمة ورفعة كان باعثا على الغرور برؤية النفس ،لذا كان الخضوع والتواضع والذلّ لله دواء للنفس ومنجاة لها من الغرور والكبر وهو مُثمر للخشوع الذي هو أعلى منه مرتبة ،لذا يُعرّف إمام الطائفة الجنيد الخشوع بأنه :" تذللّ القلوب لعلام الغيوب " [55]، وفي الحديث الصحيح «مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ، وَمَا زَادَ اللهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ، إِلَّا عِزًّا، وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللهُ» [56]

وعلى هذا المعنى فالذل بعد العز زيادة يقين وخشوع وترقي من مقام رؤية العبد لنفسه وأفعاله إلى مقام رؤية تصريف الحقّ ومشاهدة تجلياته بأسمائه وصفاته ،وهذا المقام الرفيع حازه سيد البشر محمد ﷺ ، وقد كان في كل انتصاراته التي حققها يُجسد العبودية والذلّ لله حياء وخشوعا وخضوعا لأنه رأى ربه في كل شيء .

أما الأمارة الثالثة التي أشار إليها أبو حمزة البغدادي فهي قوله (ويخفى بَعْد الشهرة)، وهذه قيمة أخلاقية رفيعة جدا ،أشار إليها صاحب الحكم العطائية بقوله :" ادفن وجودك في أرض الخمول فما نبُت مما لم يُدفن لا يتم نتاجه" ،وقال العارف بالله أحمد زروق في شرحها :

" غيّبْ ما تُذكر به من علم وعمل وحال وغيره فيما ينفي عنك شهوة الرفعة عن عيوبك الأصلية والفرعية العارضة..."[57]

وفي هذا المعنى اللطيف الذي أبانه الشيخ زروق الفاسي لفتة منهجية وتربوية مهمة ، إذ فيها نفي الوهم الذي قد تتلبس به النفس من كون الخفاء والخمول هو عزلة الناس والانقطاع عنهم واجتناب مُخالطتهم ،إنما المراد بالخفاء والخمول إخماد الصفات الدنيئة وتغييب المحامد والمحاسن التي من شأنها أن تجعل من النفس ربا من دون الله سواء أكانت علما أو عملا أو حالا لأنها مطيّة إلى الرفعة والغرور والكبر ،والناظر في أمراض النفوس والقلوب يجد أغلبها لا ينتبه إلى هذا الداء العُضال ،لذا نجد الشيخ محمد الغزالي يُنبّه إلى خطورة الفهم السقيم لأقوال أساطين التصوف وتخريجها على غير وجهها أن الذين يجابهون الحياة ويُغبّر وجوههم دخان المصانع وتراب الحقول أولى الناس بالله وكتابه من أولئك الذين يرون في الروحانية اعتزالا وخِدرا نفسيا [58].

هذه هي الأمارات التي ذكرها أبو حمزة البغدادي وفي أضدادها زيادة بيان وإيضاح فهذه الثلاث فضائل ومُنجيات وأضدادها رذائل ومُهلكات.

4،2. 5. سهل بن عبد الله التستري:[59]

بيّن التستري أمارات أهل التصوف وحدّهم بقوله:" لا يستكثرون ولا يستنكرون شيئا ولكل فعل عندهم تأْويل فهم يعذرونك على كل حال." [60]

فتأمل في هذه الأمارات والفضائل والصفات التي تحلّى بها القوم ،فقوله (لا يستكثرون) ،أي لا يُقيمون لأعمالهم اعتبارا ،فهي قليلة في أعينهم وعدم استكثار العمل تجاوز لرؤية النفس أو العمل فهو مطية الزلل، لذا نجد ابن عطاء الله السكندري يستفتح حِكمه بهذا المعنى اللطيف قائلا :" من علامات الاعتماد على العمل نُقصان الرجاء عند وجود الزلل"، وجاء في شرحها عند العلامة زروق الفاسي :" الاعتماد حصر القوة في الشيء، وهو باعث النفس لما تُريد في تحصيل المقصود منه ،وعلامة حصوله إيثار المُعتمَد والنظر إليه في الإقبال والإدبار..." [61] .

فتأمل كيف أشار العلامة زروق إلى استكثار العمل لدرجة اعتقاد القوة فيه ومنه ،والنظر إليه في الإقبال والإدبار ،وهذا كله منبعه رؤية النفس عند العمل بعبادة الأسباب والغفلة عن المُسبب الحقيقي لها

،فاستكثار العمل تعويل ضمني عليه ،وهذه آفة دفينة لا يبرأ منها إلا من عصمه الله ،لذا نجد المصطفى ﷺ يُعلمنا الاستغفار من هذه الأوهام والعلل والأدواء قائلا:

« سَيِّدُ الِاسْتِغْفَارِ أَنْ تَقُولَ: اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لاَ إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ، أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وَأَبُوءُ لَكَ بِذَنْبِي فَاغْفِرْ لِي، فَإِنَّهُ لاَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ» [62]،ليس ثمّة إلا عبد مُذنب وربّ مُنعم، وقد أحسن صاحب الفتوحات قولا:

يا من يراني ولا أراه *** كم ذا أراه ولا يراني

وقد اعترض عليه بعض أصحابه على قوله لأنه حمله على ظاهره ،إذ كيف يُعقل أن نقول أنه لا يرانا وهو مُحيط بكل شيء ؟!،فأجاب الشيخ الأكبر بمعنى لطيف جدا قائلا:

يا من يراني مُجرما *** ولا أراه آخـــذا

كـم ذا أراه مُنعـما *** ولا يراني لائـذا [63]

أما الأمارة الثانية التي اتصف بها أهل التصوف وجعلتهم لهم ميزة بين الخلق فهي قول التستري (ولا يستنكرون شيئا)،وفي هذا مضمون توحيدي بالوقوف على حكمة الله وتصريف أقداره ،فهم يعلمون أن الكل من عند الله **﴿قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ النساء/78** ، وجاء في تفسيرها :" لا يفقهون القرآن ويتدبرون حديثه، ولو تدبروا لعلموا أن الكل من عند الله، وأنه خالق كل شيء، المقدَّر لكل شيء. ثم علَّمنا الأدب بنسبة الكمالات إليه سبحانه بلا واسطة، ونسبة النقائص إلى شؤم ذنوبنا " [64].

فالصوفي الحقيقي هو الذي ينظر في أفعال العباد ويرى فيها حكمة الله وتصريفه ،فإن رأى أصحاب الذنوب والمعاصي والآثام ،تذكر أنه كان يوما ما عاصيا ،لذا نجد مولانا الرّومي يحذّر من الحكم على الآخرين بالخسران: "فلا تنظر إلى كافرٍ قط باحتقار، فهناك أملٌ في أنْ يموت مسلمًا، فإن عُلم لك بختام عمره حتّى تحوّل عنه الوجه تمــامًا " [65]

ويقول فريد الدين العطار" ... وكلُّ من يعيب مرتكبي الذّنوب والمعصية يجعل نفسه في مقدّمة خيل الجبابرة" [66]

هذه النّظرة بعين الرّحمة إلى الخلق كانت خلقًا للأنبياء والكاملين، والنّبي ﷺلخُلقه هذا أحبّه كلُّ أحدٍ حتّى الجماد حنَّ إليه، ويطالعنا كتاب "أسرار التّوحيد" بموقف أبي سعيد من العصاة والمجرمين، فقد كان يعقد مجلس وعظ في "ميهنة" وكان بجنبه سكارى علا صوتهم فذهب أصحابه وهدموا عليهم المنزل،

وجواب أبي سعيد لهم أنّهم انشغلوا بالباطل لدرجة أنّهم لا يشعرون بما أنتم فيه من حقٍّ وأنتم بالرّغم من رؤيتكم للحقِّ فلم تنشغلوا به حتّى لا تشعرون بباطلهم، فكانت الثّمرة توبتهم على يديه، كما كان اليهود والمسيحيّون يسلمون على يديه ويعظّمونه [67].

ويقول عبد الوهاب الشعراني :" أخذ علينا العهد أن نرى نفوسنا دون كل جليس من المسلمين ولو بلغ ذلك الجليس في الفسق إلى الغاية فنرى نفوسنا أفسق منه فمن شك من اهل الدعاوى في ذلك فليعرض على نفسه صفات الفسق التي عملها طول عمره ويقابل بينها وبين صفات الفسق التي ظهرت من ذلك الجليس ،فانه يجد صفات فسقه اكثر من صفات جليسه، ذلك لان الله ستير وما يكشفه من صفات عباده قليل...فلم يوجب علينا الشارع إلا نهي العصاة أما احتقارهم وازدراؤهم فهو منهي عنه وفي الحديث من احتقر مسلما فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين وقوله لا يدخل الجنة من كان في قلبه حبة من كبر والكبر بطر الحق وغمط الناس " [68]

هذا الذي ذكره الشعراني مُستلهم من قول سهل التستري عن الفضيلة التي تحلّى بها القوم ،وهي باعثة على التخلق بأخلاقهم وآدابهم ،ويشرح لنا الشعراني المعنى السابق في عدم الإنكار على العُصاة والمُذنبين مُبرزا الحكمة نافخا في رماد الأسباب حتى تتجلى حكمة الله متوهجة :"...ثم أقل ما تشهده يا أخي من محاسن ذلك العاصي أنه لولا تحمل تلك القاذورات التي نزلت على الخلق لكنت أنت المرتكب لها بحكم القبضتين ،إذ لا بد للمعاصي من فاعل...ويقول على الخواص فعلى الإنسان أن يأخذ من جليسه المكابر والزاني والخمار صفة التجلد والصبر تحت القضاء والقدر ،ويقول لنفسه لولا تحمل هذا عنك الظلم وأكل الحرام والزنا وبيع الخمر لربما كنتِ أنتِ الواقعة فيه ثم انظر صبره تحت قضاء الله وقدره وتنكيس رأسه بين الناس واحتقارهم له ونفرتهم من الجلوس معه "[69]

أما الفضيلة الأخرى التي أشار إليها التستري والتي تحلّى بها أهل التصوف فهي قوله (ولكل فعل عندهم تأْويل فهم يعذرونك على كل حال) فهو تأكيد للمعنى السابق الذكر ،وفي هذا المعنى قَالَ حمدون القصار مُوصيا بصحبة أهل التصوف:" اصحب الصوفية فَإِن للقبيح عندهم وجوها من المعاذير وليس للحسن عندهم كبير موقع يعظمونك بِهِ" [70].

هذه بعض التعاريف الاصطلاحية التي اخترناها لنتخذ من المعاني النورانية والقيم الأخلاقية التي تضمنتها باعثا لنا على التحلي والتحقق بها تحقيقا للعبودية والاستخلاف واتباعا لسنة المصطفى ﷺ الذي شهد له خالقه بالخُلق الرفيع ،إذ قال مُؤكدا: **﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾القلم/04** ، وفي هذا تأكيد على أصالة التصوف الإسلامي وتأكيد على مضامينه القيمية والتربوية التي يمكنها أن تُساهم في إصلاح

الخلل الذي تُعاني منه الأمة الإسلامية ببناء أفرادها ومداواة نفوسهم وتزكيتها والسعي بها نحو الكمالات والفضائل .

5. المطلب الرابع: التصوّف الإسلامي من سلام الباطن إلى سلامة العوالم الخارجية

تأكيدا للمعاني السابقة التي تناولناها في ثنايا هذه الورقة حول مفهوم التصوف ومجاله وحقيقته ،تتضح لنا بعض المعالم البارزة في الدرس الصوفي ، والتي تشكّل أرضية وقاعدة للجانب الروحي والأخلاقي في الإسلام ، ومما يمكن أن يُستفاد من الدرس الصوفي ما يلي :

5،1. البعد التربوي للدرس الصوفي تقرير لما ورد في نصوص الوحيين –الكتاب والسنة– ،وهو ما أقرته الآيات القرآنية ،من ذلك قوله تعالى : **﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ الجمعة/02.**

فالتزكية مشروع وهدف رباني ونبوي وجزء لا يتجزّأ من الرسالة المحمدية

5، 2. ابتناء التصوف الإسلامي واستمداد أصوله من القرآن والسنة وأحوال النبي ﷺ، وهو ما أقرّه الشيخ زروق الفاسي في قواعده ،في القاعدة الرابعة (04) [صدق التوجّه مشروط بكونه من حيث يرضاه الحقّ تعالى وبما يرضاه ولا يصحّ شرط بدون مشروطه **﴿ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ الزمر/07**، فلزم تحقيق الإيمان **﴿وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ الزمر/07**، فلزم العمل بالإسلام، فلا تصوّف إلا بفقه ،إذ لا تُعرف أحكام الله الظاهرة إلا منه، ولا فقه إلا بتصوف، إذ لا عمل إلا بصدق وتوجّه...][71].

وعلى ضوء هذه القاعدة تتضّح ضرورة التصوف في الدّين كضرورة الفقه للمعاملات والعقائد للاعتقادات .

5، 3. ثمرة التصوّف إصلاح القلوب وسيرها إلى علّام الغيوب، وهو ما بيّنه الشيخ زروق الفاسي في قواعده في القاعدة 13،إذ يقول [فائدة الشيء ما قُصد له وجوده، وإفادته حقيقته في ابتدائه أو انتهائه أو فيهما ، كالتصوف علم قُصد لإصلاح القلوب، وإفرادها لله عما سوى الله...] [72].

ويُمكن أن نلمس ثمار التصوف في تلك الأجيال الربانية التي تخرّجت من الزوايا ،وتربّت على أيدي رجال ربانيين عاملين ،استطاعوا أن يوقظوا همما ،فجمعوا بين السيف والقلم والسبحة ،ولا أدل على ذلك من أعلام الإصلاح والدعوة في الجزائر أمثال الأمير عبد القادر الجزائري وابن باديس والشيخ بوعمامة ،والمقراني والحداد وفاطمة لا لا نسومر وغيرهم كثير.

5، 4. تلازم صلاح الظاهر والباطن وتوقّف الأول على الثاني ،وهو ما بيّنه حديث النبي ﷺ « أَلاَ وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً: إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، أَلاَ وَهِيَ القَلْبُ» [73].

وعلى هذا الأساس يُمكن أن يُساهم التصوّف في الحدّ من الجرائم والآفات الاجتماعية ، فمن معاني التصوّف الصفاء ، وصفاء الباطن مُثمر لصفاء الظاهر وسلامته ،فمادام التصوف التزام بأحكام الشريعة والوقوف على مُقتضى الأمر والنهي كان الصوفي من هذا الباب وقّافا عند حدود الله ومحارمه ، وهذا كلّه مُثمر لتفعيل المقاصد في أرض الواقع (حفظ الدين–حفظ العقل–حفظ النفس–حفظ المال–حفظ العرض)، وهذه المقاصد الضرورية هي أساس الدين والدنيا :" فَأَمَّا الضَّرُورِيَّةُ، فَمَعْنَاهَا أَنَّهَا لَا بُدَّ منها في قيام مصالح الدين والدنيا بِحَيْثُ إِذَا فُقِدَتْ لَمْ تَجْرِ مَصَالِحُ الدُّنْيَا عَلَى اسْتِقَامَةٍ، بَلْ عَلَى فَسَادٍ وَتَهَارُجٍ وَفَوْتِ حَيَاةٍ، وَفِي الْأُخْرَى فَوْتُ النَّجَاةِ وَالنَّعِيمِ، وَالرُّجُوعُ بِالْخُسْرَانِ الْمُبِين " [74].

وعليه سلامة الباطن مُحققّة لسلامة العوالم الأخرى ،وهو ما صرّح به الله تعالى في القرآن الكريم في قوله : **﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ الأنعام /82.**

5، 5. أُخوّة أفراد المجتمع ،فيمكن أن نستلهم من التصوف الإسلامي هذا البعد الاجتماعي المستفاد من نصوص الوحي الشريف ،من ذلك قوله تعالى : **﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ آل عمران /103.**

ومن السنة قوله ﷺ:«لَا تَحَاسَدُوا، وَلَا تَبَاغَضُوا، وَلَا تَقَاطَعُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَانًا» [75]

والتصوف الإسلامي مُشتق من الصفاء ،لذا سعى أهل التصوّف للتحقق بأمر رسول الله ﷺ«لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ، حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ» 76

وهذا المعنى عبّر عنه أبو الفتح البستي شعرًا في قوله:

تخالف النّاس في الصّوفي واختلفوا *** جهلا وظنّــوه مشتقّا من الصّـوف

ولست أنحل هذا الاسم غـير فتى *** صافى فصُوفي حتى سميّ الصّوفي[77]

6. خاتمة:

بعد هذه الجولة في موضوع المضامين التربوية الروحية للتصوف الإسلامي قراءة تحليلية للدلالات الاصطلاحية للتصوف الإسلامي ، نأمل أن تكون هذه الورقة قد أجابت عن الإشكالية المحورية والسؤال المركزي المتعلق بالبعد التربوي والقيمي لمشروع روحي أسسه أساطين التصوف الإسلامي من

أجل بناء الإنسان تحلية بالفضائل وتخلية من الرذائل ،ففيما عرضناه ردّ على تلك الرؤى التي رسم أصحابها صورة قاتمة عن التصوّف الإسلامي ناسين أو متناسين تلك السياقات المعرفية والسياسية التي نشأ فيها التصوف الإسلامي وتطوّر عبر الزمن ، وفيه ردّ أيضا على مدّعي التصوف الذين حوّلوه إلى رسوم وطقوس وأشكال ونزعوا منه مضامينه التربوية فأضحى خِرقة بعد أن كان حُرقة وألما، وفيه تأكيد من جهة أخرى أن أرباب التصوف والمؤسسين الأوائل جمعوا بين السيف والقلم والعلم والعمل ، وتحققوا بمعاني التصوف ظاهرا وباطنا ،ورأوا فيه حركة حياة وسعي وعمل دائم وأخذ بالأسباب ومُخالقة الناس بُخلق حسن والسعي في عون عيال الله ومدّ جسور التواصل مع بني الإنسان على اختلاف مشاربهم ومللهم وأعراقهم استحضارا للرحم الإنسانية وميثاق الربوبية الأول، ونأمل أن تكون هذه الورقة بذرة أمل حاولنا من خلالها أن نزرع الأمل في النفوس ،ونعيد القلوب والعقول الحائرة إلى رياض اليقين المتمثل في نور الوحي ونلين القلوب القاسية التي أغرتها المادّة وعصفت بها موجة المدنية ،هذا كلّه من أجل مواطن صالح مُصلح فعّال يحمل قادوم العمل وسُبحة التصوف مع صفاء مع الخلق ومُصافاة مع الحقّ ، ورحم الله الحاج علي التماسيني التيجاني الذي جعل شعاره [السبيحة والمسيحة واللويحة حتى تطلع الرويحة]، كما أن الحديث عن المضامين التربوية للتصوف الإسلامي من خلال التعاريف الاصطلاحية إحالة منهجية على الهدف الذي من أجله أرسى أساطينه قواعد هذا العلم مُستنبطين إياها من نور الوحيين (القرآن وسنة المُصطفى ﷺ) وتصحيح ضمني للنظرة الخاطئة التي بناها كثير من القارئين عن التصوف واعتباره عُزلة ودروشة لا علاقة لها بدولة أو سياسة أو اقتصاد أو نُظم أسرية واجتماعية ، وهي صورة يمكن تصحيحها باستحضار القواعد المنهجية التي أكدّ عليها علامة المغرب الإسلامي الشيخ زروق الفاسي حين قال في أول قاعدة من قواعد التصوف [الحكم عن الشيء فرع عن تصور ماهيته].

وصلى الله على سيدنا محمد وآله الطيبين الطاهرين

6. قائمة المصادر والمراجع:

01- الإنسان ذلك المجهول ، الكسيس كاريل ،ترجمة: شفيق أسعد فريد، مكتبة المعارف ، بيروت، ط 1993.

02- إنشاء الدوائر ،محي الدين بن عربي ، مطبوع مع عقلة المستوفز + التدبيرات الإلهية ،ط مدينة ليدن ،مطبعة بريل ،سنة 1336هـ .

03-البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ، ابن عجيبة ،تحقيق: أحمد عبد الله القرشي رسلان، الناشر حسن عباس زكي – القاهرة ،ط 1419.

04-البحر المورود في المواثيق والعهود، عبد الوهاب الشعراني، مكتبة الثقافة الدينية ،القاهرة ، ط 01، 2004.
05-باطن الإثم الخطر الأكبر في حياة المسلمين، محمد سعيد رمضان البوطي.
06- تاريخ الفلسفة الإسلامية ،هنري كوربان، ترجمة :نصير مروة+ حسن قبيسي ، عويدات للنشر ،بيروت ،لبنان، ط 02، 1998.
07- التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر – تونس، ط 1984.
08-تسع رسائل في الحكمة والطبيعيات ،ابن سينا ،دار العرب للبستاني ،القاهرة ، ط02،بدون تاريخ .
09- التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق، زكي مبارك، ط 2012.
10- التعرف لمذهب أهل التصوف ،الكلاباذي، دار الكتب العلمية ، بيروت، بدون تاريخ.
11-الجانب العاطفي من الإسلام ،محمد الغزالي ،نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ط 03، 2005.
12- خلق المسلم، محمد الغزالي، دار الريان للتراث، القاهرة، ط 01، 1987،ص 09 بتصرف.
13-ربانية لا رهبانية، أبو الحسن الندوي، دار الفتح للطباعة والنشر ،بيروت ،بدون تاريخ.
14-الرّسالة القشيريّة، عبد الكريم القشيري،دار الكتب العلميّة،بيروت،لبنان،ط 2001.
15- ركائز الإيمان بين العقل والقلب ،محمد الغزالي، دار الشروق ،بدون تاريخ.
16- سيرة ذاتية، سعيد النورسي مطبعة سوزلر، استنبول، ط01، 1998م.
17-شرح الحكم العطائية، أحمد زروق، تحقيق: عبد الحليم محمود، دار الشعب ،القاهرة، ط 1985.
18-طبقات الصوفية ،السلمي، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا ،دار الكتب العلمية – بيروت،ط01، 1998.
19-الفتح الرباني والفيض الرحماني، عبد القادر الجيلاني ،دار الريان للتراث، بدون تاريخ .
20- قواعد الأحكام في مصالح الأنام، العز بن عبد السلام، مكتبة الكليات الأزهرية – القاهرة، ط 1991،ج 02، ص 212.
21- قواعد التصوف، زروق الفاسي، تح: عبد المجيد خيالي، دار الكتب العلمية، بيروت ،لبنان، ط02،2005.
22- كبرى اليقينيات الكونية وجود الخالق ووظيفة المخلوق ،محمد سعيد رمضان البوطي، دار الفكر المعاصر، بيروت لبنان+ دار الفكر ،دمشق.
23- كتاب فيه ما فيه ،جلال الدين الرومي، ترجمة عيسى علي العاكوب ،دار الفكر دمشق +دار الفكر ،بيروت لبنان ، ط 01، 2002.

24- لسان العرب ،ابن منظور ، دار صادر، بيروت، ،ط 1414، ج 14،ص 403.
25- اللّمع، أبو نصر السّرّاج الطّوسي، تح: عبد الحليم محمود + طه عبد الباقي سرور، دار الكتب الحديثة بمصر + مكتبة المثنى ببغداد، ط 1960.
26- المثنوي، جلال الدّين الرّومي، ترجمة: الدّسوقي شتّا، المكتبة العربيّة الشّرقيّة، ط 1996.
27- المحاور الخمسة في القرآن الكريم ،محمد الغزالي، دار الشروق ،بدون تاريخ.
28- مُحي الدين بن عربي، طه عبد الباقي سرور، مؤسسة هنداوي ،القاهرة، ط 2014 .
29-مدخل إلى التصوف الإسلامي،أبو الوفا الغنيمي التفتزاني،دار الثقافة للنشر والتوزيع، ط03، بدون تاريخ
30-معارج القدس في مدارج معرفة النفس دار الآفاق الجديدة – بيروت، ط 02، 1975.
31- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمّد فؤاد عبد الباقي، دار الكتب المصريّة، ط 1364 هـ.
32-مقدّمة ابن خلدون، ابن خلدون، تح: عبد الله محمّد الدّويش، دار البلخي+ مكتبة الهداية، دمشق، ط 01، 2004.
33-منطق الطّير، فريد الدّين العطّار، بديع محمّد جمعة، دار الأندلس للطّباعة والنّشر والتّوزيع، ط 2002،
34-المنقذ من الضّلال والموصل إلى ذي العزّة والجلال، أبو حامد الغزالي، قدم له: علي ملحم، دار ومكتبة الهلال، ط1، 1993.
35-المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، النووي، دار إحياء التراث العربي بيروت ط02، 1992.
36-الموافقات في أصول الشريعة، الشاطبي، تحقيق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن عفان،ط01، 1997.
37- موسوعة مصطلحات التّصوّف الإسلامي، رفيق العجم، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ط 01، 1999 م.
38- ميزان العمل ،أبو حامد الغزالي ،تحقيق: سليمان دنيا ،دار المعارف، مصر ،ط01، 1964.

8. الحواشي والإحالات:

[1] انظر : الإنسان ذلك المجهول ، الكسيس كاريل ،ترجمة: شفيق أسعد فريد، مكتبة المعارف ، بيروت، ط 1993، ص 16 وما بعدها بتصرف.

[2] البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ، ابن عجيبة ،تحقيق: أحمد عبد الله القرشي رسلان، الناشر حسن عباس زكي – القاهرة ،ط 1419، ج 03، ص 87.

[3] أخرجه البخاري عن النُّعْمَانَ بْنَ بَشِيرٍ، كتاب الإيمان، باب فَضْلِ مَنِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ، رقم:52

[4] انظر: معارج القدس في مدارج معرفة النفس،أبو حامد الغزالي، دار الآفاق الجديدة – بيروت، ط 02، 1975،ص16.
[5] انظر : ميزان العمل ،أبو حامد الغزالي ،تحقيق: سليمان دنيا ،دار المعارف، مصر ،ط01، 1964، ص 210 بتصرف.
[6] انظر : كتاب فيه ما فيه ،جلال الدين الرومي، ترجمة عيسى علي العاكوب ،دار الفكر دمشق +دار الفكر ،بيروت لبنان ، ط 01، 2002، ص 99 وما بعدها بتصرف .
[7] حظه من الألوهية إشارة إلى قوله تعالى ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ الحجر /29. ،وبهذا ينتفي وهم تأليه الإنسان .
[8] إنشاء الدوائر ،محي الدين بن عربي ، مطبوع مع عقلة المستوفز + التدبيرات الإلهية ،ط مدينة ليدن ،مطبعة بريل ،سنة 1336هـ ، ص 21.
[9] البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، ج 07، ص 309.
[10] كبرى اليقينيات الكونية وجود الخالق ووظيفة المخلوق ،محمد سعيد رمضان البوطي ،دار الفكر المعاصر، بيروت لبنان+ دار الفكر ،دمشق، ص 247 وما بعدها.
[11] تسع رسائل في الحكمة والطبيعيات ،ابن سينا ،دار العرب للبستاني ،القاهرة ، ط02،بدون تاريخ ، ص 64 وما بعدها.
[12] اللّمع، أبو نصر السّرّاج الطّوسي، تح: عبد الحليم محمود + طه عبد الباقي سرور، دار الكتب الحديثة بمصر + مكتبة المثنى ببغداد، ط 1960، ص23.
[13] مقدّمة ابن خلدون، ابن خلدون، تح: عبد الله محمّد الدّويش، دار البلخي+ مكتبة الهداية، دمشق، ط 01 ،2004، ج 02، ص 225.
[14] الكشف: " بيان ما يُستتر على الفهم فيُكشف عنه للعبد كأنّه رأي عين" انظر: موسوعة مصطلحات التّصوّف الإسلامي، رفيق العجم، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ط 01، 1999 م. مادة كشف، ص 790.
[15] المنقذ من الضّلال والموصل إلى ذي العزّة والجلال، أبو حامد الغزالي، قدم له: علي ملحم، دار ومكتبة الهلال، ط1، 1993، ص05.
[16] انظر: مدخل إلى التصوف الإسلامي،أبو الوفا الغنيمي التفتزاني،دار الثقافة للنشر والتوزيع، ط03، بدون تاريخ ،ص 12 بتصرف.
[17] أخرجه البخاري عن أبي هريرة ،كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة ،رقم:50.
[18] قواعد التصوف، ص ،23.
[19] انظر :باطن الإثم الخطر الأكبر في حياة المسلمين، محمد سعيد رمضان البوطي،دار الفرابي ،سوريا ،دمشق،بدون تاريخ ص 07.
[20] التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر – تونس، ط 1984،ج 28،ص 209.
[21] أخرجه مالك في الموطأ بلاغا عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقال ابن عبد البر: هو متصل من وجوه صحاح عن أبي هريرة وغيره مرفوعا، منها ما أخرجه أحمد في مسنده، والخرائطي في أول المكارم .
[22] المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، النووي، دار إحياء التراث العربي بيروت ط02، 1992،ج01، ص 157-158.
[23] البحر المديد، ج07، ص309.
[24] المحاور الخمسة في القرآن الكريم ،محمد الغزالي، دار الشروق ،بدون تاريخ، ص 167.
[25] انظر: خلق المسلم، محمد الغزالي، دار الريان للتراث، القاهرة، ط 01، 1987،ص 09 بتصرف.
[26] الجانب العاطفي من الإسلام ،محمد الغزالي ،نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ط 03، 2005،ص 18.
[27] ركائز الإيمان بين العقل والقلب ،محمد الغزالي، دار الشروق ،بدون تاريخ، ص 97.
[28] المرجع نفسه ، ص 108.

[29] قواعد الأحكام في مصالح الأنام، العز بن عبد السلام، مكتبة الكليات الأزهرية – القاهرة، ط 1991،ج 02، ص 212.
[30] التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق، زكي مبارك، ط 2012، ص 27-28.
[31] انظر :ربانية لا رهبانية، أبو الحسن الندوي، دار الفتح للطباعة والنشر ،بيروت ،بدون تاريخ، ص 08 وما بعدها بتصرف.
[32] انظر: تاريخ الفلسفة الإسلامية ،هنري كوربان، ترجمة :نصير مروة+ حسن قبيسي ، عويدات للنشر ،بيروت ،لبنان، ط 02، 1998، ص 283 بتصرف.
[33] قواعد التصوف، زروق الفاسي، تح: عبد المجيد خيالي، دار الكتب العلمية، بيروت ،لبنان،ط02،2005،ص 21.
[34] الرّسالة القشيريّة، عبد الكريم القشيري،دار الكتب العلميّة،بيروت،لبنان،ط 2001، ص 312.
[35] من كبار أصحاب الجنيد صحب سهيل التستري ، جلس مكان الجنيد بعد وفاته ،مات سنة 311ه ،انظر : طبقات الصوفية ،السلمي، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا ،دار الكتب العلمية – بيروت،ط01، 1998،ج01،ص 203.وانظر: طبقات الأولياء، ابن الملقن،تحقيق: نور الدين شريبه ،مكتبة الخانجي، القاهرة،ط02، 1994،ج01،ص 71.
[36] اللمع ،الطوسي ،ص 45.
[37] الرسالة القشيرية ، ص 314.
[38] لسان العرب ،ابن منظور ،دار صادر، بيروت، ،ط 1414، ج 14،ص 403.
[39] أَبُو مُحَمَّد عَبْد اللَّهِ بْن مُحَمَّد المرتعش نيسابوري من محلة الحيرة وقيل: من ملقاباذ صحب أبا حفص وأبا عُثْمَان ولقي الجنيد وَكَانَ كبير الشأن ، مَات ببغداد سنة ثمان وعشرين وثلاث مائة . انظر: طبقات الصوفية ،مرجع سابق ،ص 265.
[40] انظر: كشف المحجوب، ص236.
[41] انظر: كشف المحجوب، ص 237-238 بتصرف.
[42] رواه أحمد والبيهقي والحاكم وصححه من حديث أبي هريرة .
[43] أخرجه البخاري عن مسروق ،كتاب الأدب ،بَابُ حُسْنِ الخُلُقِ وَالسَّخَاءِ، وَمَا يُكْرَهُ مِنَ البُخْلِ، رقم: 6035.
[44] عبد القادر بن أبي صالح الجيلي، قطب العارفين. ولد سنة سبعين وأربعمائة، ومات سنة أحدى وستين وخمسمائة. انظر: طبقات الأولياء مرجع سابق،ص 246.
[45] الفتح الرباني والفيض الرحماني، عبد القادر الجيلاني ،دار الريان للتراث، بدون تاريخ ،ص 115.
[46] سيرة ذاتية، سعيد النورسي مطبعة سوزلر، استنبول، ط01، 1998م،ص115 – 116بتصرف.
[47] انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمّد فؤاد عبد الباقي، دار الكتب المصريّة، ط 1364 هـ، ص 404 بتصرّف.
[48] البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، مرجع سابق ،ج 02،ص 438.
[49] أخرجه البخاري عن عَبْدِ اللَّهِ، كتاب الأدب ،باب قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ /التوبة 119 وَمَا يُنْهَى عَنِ الكَذِبِ، رقم: 6094.
[50] من أقران الجنيد، صحب السري والحسن وَكَانَ عالما بالقراءات فقيها، وَكَانَ من أولاد عيسى بْن أبان وَكَانَ أَحْمَد بْن حنبل يَقُول لَهُ فِي المسائل: مَا تقول فِيهَا يا صوفي؟ .قيل: مَات سنة تسع وثمانين ومائتين. انظر: طبقات الصوفية ،مرجع سابق، ص50.
[51] البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، مرجع سابق،ج 04،ص 501.
[52] أخرجه مسلم عَنْ مُوسَى بْنِ أَنَسٍ، عَنْ أبيه ،كتاب الفضائل، بَابُ مَا سُئِلَ رَسُولُ اللهِ ﷺشَيْئًا قَطُّ فَقَالَ لَا وَكَثْرَةُ عَطَائِهِ رقم:57.
[53] الرسالة القشيرية ،مصدر سابق، ص 265.
[54] المصدر نفسه، ص 260.
[55] المصدر نفسه، ص 182.

[56] أخرجه مسلم عن أبي هريرة ،كتاب البر والصلة والآداب، باب اسْتِحْبَابِ الْعَفْوِ وَالتَّوَاضُعِ،رقم:69.

[57] شرح الحكم العطائية، أحمد زروق، تحقيق: عبد الحليم محمود، دار الشعب ،القاهرة، ط 1985،ص36.

[58] المحاور الخمسة في القرآن الكريم ،محمد الغزالي، دار الشروق ،بدون تاريخ ،ص 70.

[59] وَهُوَ سهل بن عبد الله بن يُونُس بن عِيسَى بن عبد الله بن رفيع وكنيته أَبُو مُحَمَّد ،أحد أَئِمَّة الْقَوْم وعلمائهم والمتكلمين فِي عُلُوم الرياضات وَالْإِخْلَاص وعيوب الْأَفْعَال، توفّي سنة ثَلَاث وَثَمَانِينَ وَمِائَتَيْن.انظر: طبقات الصوفية، مرجع سابق،166-167 بتصرف.

[60] التعرف لمذهب أهل التصوف ،الكلاباذي، دار الكتب العلمية ، بيروت، بدون تاريخ،ص26.

[61] شرح الحكم العطائية، زروق، مرجع سابق، ص 25.

[62] أخرجه البخاري عن شَدَّادُ بْنُ أَوْسٍ،كتاب الدعوات ، بَابُ أَفْضَلِ الِاسْتِغْفَارِ ،رقم:6306.

[63] انظر: مُحي الدين بن عربي، طه عبد الباقي سرور، مؤسسة هنداوي ،القاهرة، ط 2014 ،ص144 بتصرف.

[64] البحر المديد،ج01،ص 532.

[65] المثنوي، جلال الدّين الرّومي، ترجمة: الدّسوقي شتّا، المكتبة العربيّة الشّرقيّة، ط 1996، ج 06 ،ص 222.

[66] منطق الطّير، فريد الدّين العطّار، بديع محمّد جمعة، دار الأندلس للطّباعة والنّشر والتّوزيع، ط 2002،ص 220.

[67] أسرار التّوحيد في مقامات أبي سعيد، محمّد بن المنوّر، ترجمة: إسعاد عبد الهادي قنديل، مراجعة: يحيى الخشّاب، الدّار المصريّة للتّأليف والتّرجمة، بدون تاريخ، ص 248.

[68] البحر المورود في المواثيق والعهود، عبد الوهاب الشعراني، مكتبة الثقافة الدينية ،القاهرة ، ط 01، 2004،ص08.

[69] البحر المورود في المواثيق والعهود، مرجع سابق، ص 09.

[70] الرسالة القشيرية ، ص 313.

[71] قواعد التصوف، ص 22.

[72] المصدر نفسه ،ص 26.

[73] أخرجه البخاري عن النعمان بن بشير كتاب الإيمان، باب فَضْلِ مَنِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ ،رقم: 52

[74] الموافقات في أصول الشريعة، الشاطبي، تحقيق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن عفان،ط01، 1997،ج02، ص17-18

[75] أخرجه مسلم عن أنس ،كتاب البر والصلة والآداب ، بَابُ النَّهْيِ عَنِ التَّحَاسُدِ وَالتَّبَاغُضِ وَالتَّدَابُرِ، رقم:2559.

[76] أخرجه البخاري عن أنس ،كتاب الإيمان، بَابٌ: مِنَ الإِيمَانِ أَنْ يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ، رقم:13.

[77] نقلا عن قواعد التصوف ،زروق الفاسي ،مرجع سابق، ص 24.

